

الدور التربوي لوسائل الإعلام.. إيجاباً.. وتعميقاً



ورد عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه كان يقول: قال رسول الله (ص): «ما من مولود إلا وولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» وتلك هي فطرة الله التي شاء أن يطبع الناس عليها.. والحديث ينصب في وعينا عجينة رخوة مطواعة، في قبضة يد متفانية في تحويلها وتشكيلها، على النحو الذي نريد.. بدءاً بتحديد الاهتمامات، ومروراً بصياغة الشخصية، وانتهاءً بغرس العقيدة، وفي ذلك إشارة بالغة إلى أن عوامل التأثير والتكيف والافتداء، تأتي ثمرة طبيعية لطول الصحة وإدامة التلازم واضطراد المتابعة.

وباستحضارنا لهذه المعاني، نتبين خطورة الدور الذي يؤديه الإعلام، بعد أن سلب الآباء وغيرهم من رموز التربية والإصلاح، قوامتهم التربوية والتوجيهية، تنشئة وتطبيعاً وتسوية، والأخطر من ذلك، أن أصبح قبله تفيض من عطائها الوافد والمتصل على المجتمع بكل قطاعاته، ناشئة ومربين، سواء بسواء، وعلى ذلك يشب الصغير ويشيب الكبير.

التباين بين إفراز الوسائل وسمو الأهداف

وبإلقاء نظرة موضوعية على الواقع الذي تصطبغ به حياتنا بتأثير من إفرازات الإعلام، ومن ينبغي أن نكونه بوحى من العقيدة الإسلامية، نجد أن الشقة قد أخذت تتسع بصورة أورثتنا تنكباً عن سواء الصراط، وانكساراً إزاء تكاليف الحياة، وذلك نتيجة محتومة للتباين بين الأهداف السّامية ووسائل التلقي القائمة، إذ أن الأولى نداء موصول إلى الارتفاع والتسامي والرشد، والثانية إغراء دائب للتدني والهبوط، ومن ثم اللصوق بالأرض..

وهنا تبدو خطورة الازدواجية التي كرس لها الإعلام وعمّقها بأذكي الأساليب وأقوى الوسائل، وهو يصب على الناس من سحره ونفته، ما يدير الرؤوس ويبهر الأبصار ويأسر العقول، ويستهوئ النفوس.

التأكيد على دور التربوي كخيار أساسي

وليس من خيار يلوح في الأفق للتمرد على هذا الواقع القائم إلاّ بأن نعيد للإعلام وجهه المشرق ليصبح من ثمّ وسيلة للتغيير والتوجيه والبناء، والصعود بالناس إلى أعلى حيث أراد لهم الإسلام وقضت بذلك تعاليمه، وهذا يتأتى - فقط - عندما يكون نابعاً من عقيدتنا، منسجماً مع قيمنا وأفكارنا، مستشرفاً لآمالنا وطموحاتنا، ومن ثم محققاً لأهدافنا التربوية الرامية إلى بناء الإنسان بناءً معنوياً متماسكاً يقرن بين الدين والدنيا في السلوك والتوجيه تحقيقاً لقوله تعالى:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ الدَّارَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص/ 77).

وهذا يوقفنا وجهاً لوجه أمام القضية التي اقتضت هذا التناول المتواضع، وهي: «الدور التربوي لوسائل الإعلام».. ومما سبق فقد بدا أن هذا الدور مفقود تماماً، مما يستلزم إيجاده، ومن ثم ترسيخه وتعميقه..

وفي هذا الإطار نضم صوتنا للمنادين بضرورة الوقوف طويلاً عند المادة الإعلامية، التي قوّتت الحصون وأقلقت المضاجع، بما تحمله من نسيج الأفكار والثقافات وأنماط السلوك، وهي وقفة تستهدف المراجعة والتدقيق من جهة، وإحلال البديل المناسب من جهة ثانية.

والأمر يبدو في غاية العسر، وليس بالسهولة التي قد يتصوره بها بعضهم، إذ أنّه بداية شاقة للسير في الطريق الصحيح المؤدي إلى إنجاز أمنية غالية طالما راودت الكثيرين، هي أمنية يتطلب تحقيقها المضيّ في ثلاثة اتجاهات، هي:

1. أن تعين أجهزة الإعلام في تأكيد وترسيخ أهداف التربية.
2. ألاّ تهدم برامج الإعلام ما تبنيه مناهج التربية.
3. أن تتكامل خُطى العمليتين، التربوية والإعلامية، في تناغم وانسجام.

وباختصار واستيعاب: تثبيت وظيفة وسائل الإعلام الأساسية والعميقة التي أقل ما توصف به أنّها أداة فعّالة في عملية تربية المجتمع بكل فئاته ومستوياته وقطاعاته..

إنّ تأكيد خير الطرق وأنجع الأساليب لإرساء دعائم هذه الوظيفة، على هدى وبصيرة، يستوجب العمل على عدة محاور، أكتفي منها بالتعرض لاثنتين، لما لهما عندي من أولوية وسبق..

أولاً: تكثيف البرامج ذات الطبع التربوي الخاص

إنّ العمل على تكثيف البرامج التربوية، يتبلور عبر إيجاد دور فاعل للتربويين، لتحقيق أهداف التربية من خلال وسائل الإعلام، وذلك بإشراكهم في وضع أسس الاستراتيجية الإعلامية، إضافة إلى استدعائهم، في إطار من التعاون، لإعداد وتقديم برامج هادفة، يُراعى فيها الحضور الإعلامي، ذو الظلال الموحية، والمعالجات الفنية البارعة، فكرةً ونصاً وإخراجاً وتنفيذاً، متوجهين بذلك إلى الإنسان في عقيدته وقيمه وتطلعاته.. على أن تحيط بجوانب رحلته في الحياة والتي هدفها - كما ألمح إلى ذلك الدكتور يعقوب الغنيم، وزير التربية الكويتي - «أن يكون سلوك الإنسان ترجمة لقيمه. وأن تكون قيمه وفقاً لما أمره به ربه، وأن تكون المحصلة النهائية لوجوده هي العمل الطيب له وللناس من حوله». وهذا التوجه المتكامل، يستغرق اهتمامات الإعلام الإيجابية من تبصير وتأثير وإقناع، من أجل صياغة الإنسان وبنائه، في جوانبه الروحية والفكرية والخلقية والوجدانية.

ومن هنا يتضح كم هي عاجزة إدارات البرامج الدينية بصورتها الحالية عن الوفاء بهذا العبء الثقيل، خاصةً وهي تُقدّم في صورة شائثة، وبأسلوب عقيم، وفي أوقات غير ملائمة... فالأمر أكبر وأخطر.. إذ أن الجهد يجب أن يتعدى هذا النطاق الضيق ليصب في الاتجاهات كلها.. ويملاً كل المواعين..

فمثلاً... ما الذي يحول بيننا وبين أن نصوغ كثيراً من قيم الإسلام في الأشكال التي تتوفر عليها وسائل الإعلام؟! مستخدمين فنون الإخراج ومهارات التقمص الحاذق للأدوار؟..

والإجابة تأتي في اتجاه أنّ الإسلام قد أرسى قيماً وندب إليها. وتحضرنى هنا قيمة «العمل»، قال تعالى:

﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة / 105).

وقال المصطفى (ص):

«إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع أن يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر».

فقيمة كهذه أرى أنّها من السهل أن تبسط أمام الناس في ثوب أخّاذ موضوعاً لفيلم أو تمثيلية أو مسلسل أو برنامج منوّع... ولا يكفي هذا، بل يجب أن يُنظر إليها بعين الاعتبار في أي عمل إعلامي

آخر، والوقوف دون أي قيمة أخرى تعمل على ازديادها أو التقليل في شأنها...

والأسلوب ذاته يمكن أن تتبعه مع غيرها، وفي الإسلام متسع، ومن ذلك:

• قيمة التحاكم إلى الله ورسوله والانعقاد من سلطان الأهواء والنزوات..

• قيمة صرف أوجه النشاط والتنافس إلى العبادة وبذل القربات لا التهاك على الحطام.

• قيمة إعلاء موازين الحق والعدل والمساواة عوضاً عن بطر الحق وغمط الناس والسعي في الأرض بالخراب.

• قيمة أخذ العفو والأمر بالعرف والإعراض عن الجاهلين بدلاً من الانغماس في الخصومة والشقاق

والمنافرة..

وكثيرة بعد ذلك تلك القيم التي باستطاعة وسائل الإعلام، إن أحسن استخدامها، أن تحيلها إلى مشاهد

ومواقف ومقاطع، تنبض بالحركة، وتفيض بالحيوية، وتنطق بالصدق، فتشد الفكر، وتوقظ الوجدان، وتسمو

بالروح، وستكون النتيجة الطبيعية: تأثراً يعقبه انقياد يثمر تمثلاً وتطبعاً يستجيبان لدواعي

الفطرة وبواعث الإيمان. وفي ذلك إنزال لوسائل الإعلام منزلة المربي، بجهد التربويين وبلاتهم

وتفانيهم.. وهذا من شأنه أن يقيم الحجة على القائمين على أجهزة الإعلام ويفند اعتذارهم بأنّ صالة

المادة التربوية عائد إلى عدم تجاوب التربويين وإحجامهم عن المشاركة الفاعلة من خلال وسائل

الإعلام..

ويبدو جلياً أنّ غياب الصلحاء عن الساحة الإعلامية قد فسح المجال واسعاً أمام المعالجات القاصرة

والشاردة.. وأذكر هنا أنّني استمعت إلى طرف من حديث كان مسرحه التلفزيون، جاء فيه أن طرد الهم

أو امتصاص الغضب وتحمل الإساءة يتحققان باللجوء إلى سماع الموسيقى الهادئة أو باستخدام «الوسائد»

في «غرفة النوم» لتقوم مقام الخصم ومن ثم إعمالها في الرأس «ضرباً ونطحاً».. وهذا هو العلاج

الأمثل!!

وسليمان بي صرد (رض) عنه يقول: كنت جالساً مع النبي (ص) ورجلان يستبان وأحدهما قد احمر وانتفخت

أوداجه، فقال النبي (ص) :

«إنني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب منه ما يجد»..

وعلى هذا يقاس..

ثانياً: ترشيد المادة الترفيحية لتحقيق مقاصد التربية

فإنّه مما لا يحتاج إلى تأكيد أو إقامة دليل أنّ المادة الترفيحية، التي ترمي إلى الإمتاع والتسلية

والإلهاء، قد أخذت تتسع بصورة طغت على الجوانب الأخرى، موظفة الإمكانيات المتاحة، ومستفيدة لأقصى حد من إقبال الجماهير، وهو إقبال مبعثه الفراغ والجري غير الواعي وراء الأهواء والرغبات غير الرشيدة، وضعف الإحساس بالمسؤولية نحو الكلمة، إرسالاً وتلقياً..

ومما لا شك فيه أن هذا الإقبال قد أدى إلى تعلق وافتتان شديدين بكل ما هو غث هازل، وضعيف ساقط، وفي الوقت نفسه إعراض وصدود عن كل ما هو جاد وهادف مما يدفع مفسدة أو يجلب مصلحة..

ومن هذا المنطلق فإن أية محاولة للترشيد لابد أن تبدأ من العزم على محاصرة البرامج الترفيحية بوضعها الراهن، وإعطائها الحيز المناسب ليكون الهدف هو: نوعية ما يبثه لا كمّيته.. فالأمة المحاطة بالأعداء، بحاجة إلى ما يفتل السواعد، ويلهب الإيمان، ويقوي الأخلاق، ويفتح العقول، ويدفع عنها خطر الإبادة والاحتلال.

وكم كان الدكتور مصطفى السباعي - رحمه الله - صادقا وهو يطلق صرخة موجهة، محذرا من بدايات هذا الانجراف المحموم، مشيرا في ذلك إلى أن الانصراف إلى هذا النوع من الإهتمامات هو «شغل الذين تم لهم البناء، أما الذين لم يبدأوا بالبناء بعد، أو بدأوا متأخرين، فمن أكبر الجرائم صرفهم عن الاهتمام في تقوية البناء، إلى الاهتمام بالرسم والغناء، وعن الاختراع إلى رقص الإيقاع، وعن صنع الحياة إلى رسم الحياة..»

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن التعامل مع المادة الترفيحية التي تملئها الضرورة، ويفرضها العصر، ويرتضيها الطبع السليم، يقتضي أن نحيطها بقناعات مؤكدة في الحس، مركوزة في الفطرة، وهي أننا ننتسب إلى أمة ليس في قواميسها أن الفن للفن، وأن الترفيه لمجرد التسلية وانتزاع الضحك وتمضية الوقت.. وإنما هي ممارسات ترتبط بمثل عليا، قوامها: الالتزام والقصد، وتفاعل في إطار من التوجيهات التي تولت العناية الإلهية إضاءتها، وذلك في أكثر من آية، وبأكثر من معنى:

قال الله تعالى:

إِنَّا زَكَّيْنُهُ نُنَاجِي السَّمَوَاتِ وَزَكَّيْنُهُ مَا قَدَّسُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (يس/ 12)

مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (ق/ 18)

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِنَفْسٍ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي (الذاريات/ 56)

وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا (الحشر/ 7)

...الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَعْبُدُونَهُ أَذْنُكُمْ أَمْ لَا... (الملك/ 17)

وفي سيرة الرسول (ص)، وصحبه، ومن تبعهم بإحسان، ومضات مشرقة في هذا الجانب، إذ أنَّهُم سبقوا إلى «الترويح» وهو التسلية والترفيه والاستمتاع في أرقى صورها، وكان ذلك بلا إفراط أو تفريط، ولتحقيق جملة أغراض، لعل أبرزها: التقوي بها على أداء الواجبات، والتسرية عن النفس علاوة على الوفاء بحق البدن.

ففي حديث الرسول (ص) أنَّهُ كان في حكمة آل داود عليه السلام: «حق على العاقل أن تكون له أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها بأصحابه الذين يخبرونه بعيوبه ويحدثونه عن ذات نفسه، وساعة يخلو فيها بلذته فيما يحل ويجمل فإنَّ في هذه الساعة عوناً على تلك الساعات».

وقال (ص) موجهاً حنظلة (رض) عنه: «والذي نفسي بيده، وإنَّكم لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر، لصاغتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة» وكرر هذه الكلمة «ساعة وساعة» ثلاث مرات.

وقالت عائشة (رض) عنها:

«لقد رأيت النبي (ص) يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد، حتى أكون أنا الذي أسأله».

وقال علي بن أبي طالب (ع):

«روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإنَّ القلب إذا أُكِرِه عمي».

وكما وضح من هذه الأمثلة، التي سبق سردها، فإنَّ هذه الممارسات لم تتجاوز هذا النطاق الضيق ذا الأبعاد والمرامي الهادفة والمسؤولة. ويرى كثير من المفكرين -على حد قول الدكتور عبد اللطيف حسين فرح الأستاذ بجامعة الملك سعود بالرياض- إن: «المادة الترفيهية يجب أن تتصيد عصافير بحجر واحد: ترفُّه عن الجمهور، وفي الوقت نفسه تؤثر عليه في اتجاه فلسفة مرسومة للمجتمع، ويطلق على هذا النوع من الترفيه «الترفيه الموجه» حيث تستغل رغبة الناس في قضاء وقت طيب لتقديم مباديء أو اتجاهات مرغوبة داخلية في المادة الترفيهية».

وإنَّ السَّيِّئَ لَعَلَى يَاقِينٍ بَأَنَّا سَنَكُونُ بِمَنَآئِ عَنِ الانْحِرَافِ، أَوِ الانْجِرَافِ فِي هَذَا الْخَطَرِ إِذَا مَا تَقِيدُنَا بَعْدَهُ ضَوَابِطُ صَارِمَةٍ يَأْتِي فِي مَقْدَمَتِهَا :

أ- وضوح الهدف التربوي لدى المخطط الإعلامي.

ب- الإعلاء من قيمة المسؤولية والالتزام أثناء المعالجة والطرح.

ج- عدم المساس بالمفاهيم والقيم «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه».

د- عدم التضحية بالمضمون لأي سبب من الأسباب في سبيل الشكل.

وبعد:

فهذه مجرد وجهة نظر متواضعة أحببت أن أشارك بها في مسيرة الوعي التي أخذت تنتظم أرجاء العالم الإسلامي مبشرة بالدخول في مرحلة «التعيين العملي»، وهي المرحلة التي تحتل على عقد العزم لارتداد المجال العلمي وصب الطاقة الفعلية في برامج تطبيقية، تعيد طريق الاهتداء العملي أمام الأمة، وتفصل خطوات السير فيه تفصيلاً... وإلى المستعان.

المصدر: مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي